اختبار الميل نحو تعلم التاريخ

دراسة تطبيقية لحالات بعض المؤرخين المعروفين

للدكتورة حكمت أبو زيد

استطاع تيرمان[١] فى دراسته للأطفال الموهوبين أن يلقى ضوءا على العوامل التى أدت الى نجاحهم فى الحياة ، كل فى ميدانه .

وهناك الكثير من الدراسات التى تستعرض نمو ميل وقدرات التلاميذ فى بعض المواد الدراسية كالقراءة والحساب[٢] .

وتعتمد بعض هذه الدراسات على تحليل لهذه القدرات والميول وتطورها فى شخص معين بالذات ، وتعرف باسم دراسة الحالات (Case Studies)

وللدكتورة فلمنج[٣] تعليق جدير بأن نسجله لها فى هذا الصدد هو :

ان أولئك التلاميذ الذين أحرزوا نجاحا فى دراسة التاريخ لم تدرس حالتهم دراسة تحليلة ، كما حدث فى الدراسات المشابهة كالقراءة وكاللغة الدارجة ، بيد أن تلك الدراسات قد أشارت بوضوح الى أن هناك رابطة قوية بين النجاح وبين الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، وبين مدى ما حصله التلميذ من خبرات وما وعاه من معلومات .

---

(١) Terman, Lewis M. and Oden, Melita H. et al. The Gifted Child Crows Up. Twenty-five Years Follow-up of a Superior Group Stanford University Press. Stanford. California. Vol IV., Genetie Studies of Genius 1947.

(٢) Fred, J. Schonell : Backwardness. In The Basic Subjects, Oliver and Boyd, Edinburgh and London, 1946.

(٣) Fleming, C. M. Research and the Basic Curriculum. University of London Press Ltd. Second Edition, 1952. pp 109 - 110.

كما أنه توجد دلائل أخرى توصلنا الى تقييم قدرة التلميذ العامة ، وعاداته الناجحة فى الاستذكار كالمثابرة ، والأمانة فى التحصيل ، والتحرز من عوامل التشتت . كما أن للصحة العامة وسلامة الحواس ، ولا سيما حاستا الابصار والسمع أثرها الهام ، الى جانب التدريس الناجح ، والكتب المدرسية الملائمة ، وشعور التلميذ بالمسئولية ، واستعداده لتقبل مثل هذه المسئولية .

فى هذه الفقرة لفتت (فلمنج) الأنظار الى العوامل التى يمكن أن تؤدى الى النجاح فى تعلم التاريخ ، كذلك بينت بوضوح أن طريقة (دراسة الحالات) طريقة هامة فى بحث مشكلة تعلم التاريخ . وثم عامل واحد ضمنته أفكارها ، وان كانت مرت به مر الكرام على ماله من أهمية ، نرى أن نلفت النظر اليه وهو الميل (Interest) ، ذلك الذى أصبح يحتل مكانا فى جميع نظريات التعلم .

ولما لم تكن هناك طريقة أفضل لمعرفة تطور الميل نحو مهنة من المهن أو مادة من المواد الدراسية ، الا بتقصى عوامل نجاح هؤلاء الناجحين فى هذه المهنة أو تلك المادة ، رأيت أن أتتبع بالدراسة ، تراجم بعض المؤرخين الناجحين سواء أكانت تراجم ذاتية (Autobiographies) أو غيرية (Biographies) ورأيت أن هذه الطريقة هى أفضل الطرق الميسورة والتى تدنو من طريقة دراسة الحالات دنوا كبيرا ، مع ادراكى لحقيقة العيوب التى تعانى منها (دراسة السير) والتى من شأنها أن تقلل من القيمة الموضوعية للنتائج التى حصلنا عليها ويمكن اجمالها فيما يلى :

١ — ان الصورة التى يصورها لنا الكاتب ، لا نستطيع الاطمئنان الى أنها الصورة الدقيقة التى تصور الحقيقة من جميع نواحيها ولا سيما من الناحية التى تتطلبها فى مثل هذه الدراسات الموضوعية ، وذلك مع ملاحظة الاحتياطيات التى تراعى فى هذا المجال[١] .

---

(١) Allport, Gordon W. Personality. A Psychological Interpretation. New York. Henry Holt & Company. 1937. p. 395

٢ — ويلاحظ أيضا على كتاب السير أنهم — وقد يكون هذا رغما عنهم — يجانبون الصواب فيما ينقلون الينا من تراجم ، وفى هذا مايعارض طريقة البحث فى علم النفس الحديث ، التى تنادى بوجوب تحرى الدقة فى المعلومات عن الشخصية التى يترجم لها [١] ، هذا بالاضافة الى الافتقار الى معلومات أساسية عن الشخصية مثل مستوى القدرة العامة ، وانماط السلوك وصفاتهم الشخصية .

٣ — وثم عيب آخر ، يبدو واضحا هو أن تلك التراجم أو السير تتناول قصص نجاح أبطالها فى ميادينهم الدراسية ، فهل من الممكن أن تطبق هذه على التلاميذ فى المدارس العامة ؟ !

ومع هذا كله ، فان من المستطاع أن تطبق دراسة السير فى تحليل عوامل نجاح بعض الناجحين فى دراسة التاريخ ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — استخدم الكثيرون من علماء النفس فى دراسة الحالات طريقة السير هذه ، أمثال (كاتل Cattell)[٢] و (وودز Woods)[٣] و (كوكس Cox)[٤].

وهم يعتقدون أن الدراسات السيكولوجية المؤسسة على الحقائق التاريخية والمقتبسة من سير الغابرين والحاضرين ، تمتاز لا بطرافتها فحسب ، ولكن بقدرتها أيضا على ايصالنا الى نتائج تقريبية .

٢ — غير أنه يجب أن نلفت الأنظار الى النتائج التى نصل اليها عن طريق هذا التحليل يجب أن تؤخذ بشىء من الحذر [٥] ، أى أن قيمتها

---

(١) Terman, L.M. editor to Cox, C.M The Early Mental Traits of Three Hundred Genuises, Genetic Studies of Genius, Vol. II. California Stanford University Press, 1926, Preface p. VII

(٢) Cattell, J. Mckeen, " A Statistical Study of Eminent Men. " Popular Science Monthly, February, 1903. pp. 359 - 377.

(٣) Woods, Freurick Adams. Mental and Moral Heredity in Rovalty : A Statistical Study in History and Psychology, New York. Holt 1906.

(٤) Cox. C.M. Op. Cit. كوكس : المرجع المذكور .

(٥) كوكس : (Cox) المرجع السابق : ص ٦

الموضوعية مرتبطة بهذا الشخص بعينه فى ظروف معينة . وبعبارة أدق ، يجب أن تؤخذ كعينات لأفراد أحرزوا نجاحا فى ظروف مواتية .

الأسس التى بنى عليها اختيار الشخصيات التاريخية :

أرى من المفيد أن ألخص الأسس التى بنيت عليها اختيارى للثلاث شخصيات وهى :

١ — تمثل كل شخصية نمطا مستقلا فى الاتجاه ، ولون الدراسة التاريخية .

٢ — جميع المختارين من المؤرخين قد ترجموا لأنفسهم أو كتبوا مذكراتهم

٣ — جميع المؤرخين ينتمون الى بيئة واحدة — البيئة الانجليزية — لكى تتيسر مقارنتهم بعضهم ببعض وهم : (تريفليان) ، و (چون ستيوارت مل) ، و (جيبون) .

ولقد شاءت (كوكس) فى بحثها المذكور أن تضم فى قائمة الشخصيات الموهوبة المؤرخين : الثانى والثالث[١] ، فقررت مستوى القدرة العقلية العامة (لمل) بـ ١٩٠ درجة[٢] ، و (جيبون) بين ١٤٥ — ١٥٥° درجة[٣] ، ولم يصل الينا القدرة العقلية العامة (لتريفليان) المؤرخ المعاصر ، وربما لهذا السبب قد أغفلته قائمة (كوكس) .

ولقد رأيت ألا أكتفى بما كتبه هؤلاء عن أنفسهم[٤] ، وأن أرجع الى ماكتبه

---

(١) قدر مستوى القدرة العامة ، ثلاث حكام منفردين وهم تيرمان (Terman) ، ميرل (Merrill) كوكس (Cox) ، أنظر المرجع السابق . المقدمة ص VIII .

(٢) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٧٠٧

(٣) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٥٢٨

(٤) Trevelyan, G. M. An Autobiography and Other Essays, Londan, Longmans, Green and Co. 1949. pp 1-51 - ص ١ — ٥١

— Mill, John Stuart : Autobiography, Preface by Laski, H. J. The World's Classics - Geoffrey Cumbelege, London, Oxford University Press 1942.

— Gibboh, Edward, The Autobiography of Edward Gibbon, Edited by Oliphau Smeaton, Everyman's Edition 1911.

الآخرون عنهم ؛ لأن فى هذا المنهج ضمانا لتجنب ما يخشى أن نقع فيه من خطأ اذا ما اعتمدنا على أحد المصدرين منفردا .

ويجمل بنا قبل أن نأخذ فى تحليل هذه الشخصيات فى ضوء ما أسلفنا من أهداف لهذا البحث ، أن نحدد مشكلة أصل وتطور الميل نحو التاريخ ، ذلك لأنها مشكلة تهم المربى بوجه خاص .

لقد أصبح من المسلم به [١] ، أن الميل للتاريخ ميل بدائى وطبيعى معا ، سواء كان ذلك فى الفرد أو الجماعة ، الصغار منهم والكبار اذا ما صب فى قالب قصصى أخاذ . ولعهد قريب كانت الطريقة المثلى لتدريس التاريخ هى : (الطريقة السردية) غير أنه فى غضون القرن التاسع عشر ، تغيرت النظرة الى التاريخ ، وأصبح هدف طالب التاريخ هو تحرى الحقيقة والتأكد منها . الأمر الذى أثار مشكلة أخرى هى : هل سيظل التاريخ يجذب الصغار فى شكله الحديث (البعيد عن الأسلوب القصصى الأخاذ ؟) كما يجذب الكبار ؟

أجاب (راوزى Rowse)[٢] عن هذه المشكلة عندما فرق بين مرحلتين أو على الأقل بين شكلين من أشكال الميل نحو التاريخ :

١ — ميل الأطفال للتاريخ ، يمكن أن يقارن بميلهم للقصة .

قصة السندباد البحرى مثلا أو قصة سنوحى أو قصة الملك آرثر .

٢ — ميل الراشد الى معرفة الحقائق وتفسيرها فى القصة التاريخية التى يدرسها .

وليس من اليسير أن نجيب على هذه المشكلة أو على غيرها مما له علاقة بنفس هذا الموضوع ما لم تتتبع الميول والتحصيل الدراسى للصبية الثلاثة

---

(١) فلمنج (Fleming) ـ المرجع السابق ص ١٠٤

(٢) Rowse, A. L. The Use of History, Published by Hodder & Stoughton Ltd., for the English Universities Press, London 1946 - p. 48 (ص ٤٨)

الذين أصبحوا فيما بعد من كبار المؤرخين المشهورين ، وذلك فى تصوير تحليلى يعرض لحياتهم وأوجه نشاطهم .

أولا - تريفليان (G. M. Trevelyan)[١] :

يمكن تحديد العوامل التى وجهت ميول (تريفليان) نحو التاريخ فيما يلى :

١ - البيئة الجغرافية والتاريخية :

أمضى (تريفليان) مرحلة طفولته فى مقاطعة (ووروك شاير Warwickshire) تلك البيئة التى نشأ فيها شكسبير ، وقد قام هو بوصفها عندما عبر عن مقدار تأثيرها فى اتجاهاته وميوله فقال :

ياله من تراث ضخم ، لصبى ألفى نفسه يفكر بإيمان عميق بأن الشعر والتاريخ وارتياد الريف فى نزهات شاعرية يخلو فيهاالصبى الى نفسه هى أمتع ما فى الوجود[٢] .

وثم حادث بالغ الأهمية فى تاريخ هذا المؤرخ العظيم ، هو أنه شاهد وهو طفل دون السابعة مسرحيات شكسبير التاريخية الخالدة تمثل على مسرح شكسبير القديم (سترادفورد Stradford) .

وارتسمت بمخيلته بما فيها من أحداث الماضى التى كان لها أبعد الأثر فى تكييف اتجاهات (تريفليان) العقلية .

٢ - البيئة المنزلية :

كان لوالده — وللوالد تأثير كبير على توجيه ميول ابنه واتجاهاته العلمية ، فهو ينطبق عليه قول الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه ! !

---

(١) تريفليان . ولد عام ١٨٧٦ ، وكان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج ، وله مؤلفات قيمة منها « تاريخ انجلترا » .

(٢) تريفليان . الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٣

وكان أبوه مؤرخا ، وأراد أن يخرج من ابنه مؤرخا على غرار[١]، فاتخذ منه صديقا ، وتولى تنشئته على هذا النحو ، بجميع الوسائل التى تكفل له هذا القصد ، من بينها قص القصص ورواية الأحداث والشخصيات التاريخية الطريفة كما درجت أسرته على تغذية هذا الميل فيه بالوسائل المعينة كاللعب التى تمثل الجنود والآلات الحربية ، ورسم خطط المواقع والمعارك بصورة محسوسة ، ولا سيما معارك نابليون . هذه العادة المتأصلة فى الأسرة منذ عهد بعيد ، قد أخذ بها الطفل الى حد أن كرس مدة طويلة من حياته فى المستقبل كمؤرخ لدراسة وللكتابة عن المعارك والمواقع الحربية .

٣ ـ البيئة السياسية :

وعندما بلغ (تريفليان) الرابعة من عمره سنة ١٨٨٠ ، شارك اخوته الكبار فى حماس ذلك الجو الذى تخلقه الانتخابات العامة . وعندما بلغ السادسة تبوأ والده رئاسة الوزارة[٢] فى حكومة ايرلندة فى هذا الوقت الذى اتسم بطابع القلق وبالخلاف بين البلدين — انجلترا وايرلندة — الأمر الذى ترك أثره فى نفسية الصبى الصغير ، وذلك عن طريق خبرة غير مباشرة بالحوادث السياسية المعاصرة لالتصاقه التصاقا تاما بأبيه ، الذى كان قد تعود أن يفضى لابنه بآرائه وتعليقاته على الحوادث السياسية المختلفة .

٤ ـ نشاته العلمية :

الى جانب هذه العوامل البيئية التى تأثر بها (تريفليان) فقد درجت مربيته على تعليمه تاريخ انجلترا ، فكانت تقرأ له وهو لا يزال طفلا صغير كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) ذلك الكتاب الذى كان يحكى هذا التاريخ بشكل قصصى مشوق .

---

(١) نشر والده ترجمة حياة « ماكولى » سنة ١٨٧٦ — أنظر الترجمة الذاتية لتريفليان . المرجع السابق ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٧

وعندما بلغ السادسة بدأ يدرس تاريخ فرنسا ، فاستطاع بذلك وهو فى هذه السن المبكرة ، أن يتعلم أن هناك بلدا آخر الى جانب بلده ، وكما قال : (بلد له معاركه وأيامه وأمجاده الخاصة به[١]) ومنذ ذلك الحين بدأ (تريفليان) يتعود حفظ التواريخ (الأيام) والأشعار عن ظهر قلب .

٥ ــ الوراثة الاجتماعية :

وللوراثة الاجتماعية أثرها أيضا فى توجيه ميول الطفل واتجاهاته . فان مادة التاريخ مثلا كانت مادة التخصص (لماكولى Macaulay)[٢] ، المؤرخ الانجليزى الكبير الذى كان عما لوالد (تريفليان) ، ولقد كان الصبى شديد الاعجاب والحب لعمه هذا . وكما كان (ماكولى) يكره مادة الحساب ، كذلك ورث (تريفليان) هذا العداء الشديد لهذه المادة منذ حداثته .

٦ ــ بيئته المدرسية :

وعندما التحق بتلك المدرسة الاستقراطية (هارو Harrow) سنة ١٨٨٩ ، كانت السيادة للمناهج الكلاسيكية على غيرها من المواد الدراسية الأخرى . فهل تأثرت ميول الصبى نحو مادته المفضلة ؟

لقد استطاع (تريفليان) أن يبذ أقرانه فى كتابة الشعر اللاتينى ، الى درجة شعر معها جميع من فى المدرسة بأنه سيتخصص فى اللغة اللاتينية فى مستقبل حياته ، على أن هذا لم يؤثر على قرار قداتخذه وميل قد بدأه واتجاه قد بدا واضحا نحو مادة التاريخ . لقد كان دائم التطلع كما يقول : (لكى لا يكون كلاسيكيا بل مؤرخا)[٣] . مرة واحدة تلك التى فكر فيها أن يصبح شاعرا ، ولقد كان تريفليان ينظم الشعر فعلا ، ولكنه لم يفكر قط فى أن يصبح قائد جيش ، أو رجل سياسة ، أو سائق سيارة . لقد كان واثقا من أن مستوى

(١) المرجع السابق : ص ١٣
(٢) المرجع السابق : ص ١٣
(٣) المرجع السابق : ص ٩

تحصيله فى اللغة اللاتينية لم يكن راجعا الى ميل خاص أو لقدرة فذة فى هذه اللغة ، بقدر ماكان راجعا الى الطرق الجيدة التى كان يتبعها المدرس مع تلاميذه على أن هذا لا يغير الحقيقة ، وهو أن جو المدرسة فى (هارو) لم يكن ليشجع على التعمق فى دراسة التاريخ ، بل كان معاديا لدراسة المواد الأخرى فيما عدا المواد الكلاسيكية . غير أن (تريفليان) يمثل لنا نموذجا طيبا لهؤلاء الذين يشعرون بميل عميق نحو شيء ما ، ويصرون على المثابرة للوصول لتحقيق أهدافهم على الرغم من الصعوبات العديدة التى يمكن أن تعترض طريقهم . كذلك تشير قصته بوضوح الى أن ما أثبته علم النفس الحديث من أن تأثير المنزل والوالدين أقوى من تأثير المدرسة أو المدرس بالنسبة لتكوين الاتجاهات والميول[١] .

على أن تزويد مكتبة المدرسة بكتب قيمة أتاح (لتريفليان) فرصة لمداومة قراءاته التاريخية كما يريد . وهناك استمر فى تعليم نفسه بنفسه .

الفرصة الثانية ، اعترضت طريقه فى السنة الأخيرة من حياته الدراسية فى (هارو) ، هناك التقى بمدرسين ملهمين ، وصادف أن كانا يمتازان بميل خاص نحو مادة التاريخ[٢] ، والى هذين يرجع الفضل فى تقدم تريفليان لامتحان الشهادة الثانوية ، وأن يختار التاريخ مادة تخصصه ، كما أتاح له فرصة ليقرأ التاريخ الحديث الذى جذبه للتعمق والتوفر على دراسته .

بدأت المرحلة الثالثة من مراحل تعلمه لمادة التاريخ فى (كمبردج) هناك وجد البيئة الجامعية مهيأة لمتابعة دراساته ، ولتطور ميوله واتجاهاته ، فلم يكن قادرا على أن يستمع الى محاضرات تاريخية ، وأن يدرس بتعمق منهجا منتظما فى هذه المادة فحسب ، بل كان يأخذ دورا هاما فى مناقشات الجماعة بصورة دائمة . مثل

---

(١) Fleming, C. M. The Social Psychology of Education and Guide to its Study, London. Routledge & Kegan Paul Ltd. 1944

أنظر الفصل الثامن من المرجع المذكور ، لاسيما صفحات ٤٢ — ٤٣

(٢) تريفليان — الترجمة بقلمه — المرجع المذكور ص ١٠١ ، هذان المدرسان هما روبرت سمرفيل (Robert Somervel) ، جورج تاونساند (George Townsend) .

هذا الجو الطليق فتح أمامه آفاقا جديدة شجعته على أن يبدى رأيه بحرية ، وأن يستمع الى ملاحظات نقدية وجهته فى طريقه المرسوم ، وهناك أيضا قابل أستاذين فى التاريخ أحدهما (سيلى Seeley[١]) ، وثانيهما (آكتون Acton[٢]) أما الأخير فقد ترك أثرا واضحا فى كتابات (تريفليان) ، فى حين أن الأول كان تأثيره عليه ايجابيا وسلبيا فى آن واحد . ويمكن فهم التأثير السلبى لو تذكرنا ، أن الاتجاه العام حوالى نهاية القرن التاسع عشر[٣] ، كان نحو تطبيق القواعد العلمية على كتابة التاريخ . ولهذا لم يتورع (سيلى) عن وصف المؤرخين المقربين الى قلب (تريفليان) — ماكولى وكارليل — بأنهما مدعيين وليسا بمؤرخين — وفى نفس الوقت ، كان يؤكد أن التاريخ علم ليست له علاقة بالأدب[٤] . أما عن التأثير الايجابى ، فلقد ظهر فى تغير اتجاه (تريفليان) نحو كتابة التاريخ ، لقد تحقق من أن المؤرخ لابد أن يعتمد على الحقائق عندما يبنى قصته .

وفى نفس الوقت ظل يؤكد أن التاريخ فن من الفنون ، وليس كما يقول (سيلى) انه مجرد علم من العلوم . فما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له بل لا يمكن أن يحتمل فى مقام المؤرخ المعنى بشئون النفوس الحساسة ومن كان فاقد الانفعال والحماس فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه

---

(١) جون سيلى (John Seeley) سنة ١٨٣٤ — ١٨٩٥ ، مؤرخ انجليزى كان يرى أن البحث التاريخى لا بد وأن يقتصر على ميدان السياسة ولا بد من التركيز على الأوراق الرسمية لاستقاء المعلومات التاريخية .

(٢) لورد آكتون (Lord Acton) سنة ١٨٣٤ — ١٩٠٢ ، ولد ونشأ وتعلم فى القارة الأوروبية ، ثم أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج فى أواخر حياته . يرى أن يحيط المورخ إلى أبعد مدى بشئون السياسة ، وأن يعى بحركات الأفكار فهى علة الحوادث العامة — أنظر هرنشو (F. J. G. Hearnshaw) ترجمة عبد الحميد العبادى ، علم التاريخ — لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ — الطبعة الثانية ص : ٩٣

(٣) تريفليان — الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ، الفصل الأول .

(٤) تريفليان — الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ، ص : ١٧

أن يدرك هذه الانفعالات أبدا[١] ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مشكلة تريفليان أن يؤسس العلاقة بين التاريخ والعلوم ، وبينه وبين الأدب .

ولقد نجح فى حل هذه المشكلة الى درجة أن خلق وراءه مدرسة من الكتاب يحذون حذوه فى أسلوبه فى الكتابة[٢] ، أى أن يعتمدوا على الحقائق المجردة ويبرزوها فى أسلوب أدبى .

٧ - المستوى الاجتماعى - الاقتصادى :

لاشك أن مستوى المعيشة الذى تمتع به (تريفليان) فى منزله منذ نشأته الأولى قد أتاح له الوقت والمال والفرصة لمتابعة ميوله .

والواقع أنه استطاع أن يزور مع ذويه المناطق الأوروبية ذات القيمة التاريخية . وهناك استطاع أن يستوحى الالهام ليكتب الكثير من كتبه ، فعندما ذهب الى فرنسا مثلا أحس بسرور طاغ عندما شاهد عن كثب مسرح الثورة الفرنسية .

والفضل فى هذا يرجع الى كتاب « تاريخ الثورة الفرنسية تأليف كارليل » فأصبح مرشدا أمينا (لتريفليان) فى تجواله ، كما يرجع أيضا الى والده الذى كان يقوم منه مقام الدليل .

أما فى ايطاليا ، فلقد عثر على مصادر تاريخية عديدة أفادته فى اخراج كتبه التاريخية فيما بعد . هذه الزيارات ساعدته على تغذية خياله وجعله ينبض بالحياة

وهكذا استطاع أن يعيش مع هؤلاء الذين عاشوا فى الماضى ويتحدث اليهم .

وكما أعطى صورة يوضح بها مدى تأثره بآثار الماضى الغابرة بقوله :

« ان مجرد النظر الى قلعة مهدمة كان يفعل بنفسى ما تفعله الفكرة الملحة والعاطفة الجياشة التى تحتل كيانى[٣] » .

---

(١) هرنشو - المرجع المذكور - ص : ٣

(٢) تريفليان - الترجمة الذاتية - المرجع المذكور ص : ١٧

(٣) تريفليان - المرجع السابق ص : ٢٠

٨ ـ انتاجه :

لابد لنا من استعراض انتاج (تريفليان) فى التاريخ حتى بلوغه الثالثة والعشرين ، لأن مثل هذا العرض يتيح لنا أن نتبين كيف أثرت ميوله فى انتاجه عندما بلغ العشرين من عمره[١] سنة ١٨٩٦ .

كان أحد خمسة استطاعوا أن ينالوا مرتبة الشرف الأولى فى التاريخ فى درجة الليسانس ، ووصل الى هذه المرتبة على الرغم من اعتلال صحته التى أنهكها بالانكباب على الدرس والمطالعة الدائمة الدائبة . وبعد عامين من تخرجه ، أى فى سنة ١٨٩٨ ولما يتجاوز ربيعه الثانى والعشرين [٢] نراه يضع رسالته التى صار بها زميلا بجامعة كمبردج فى التاريخ الوسيط . هذا على الرغم من حرصه على أن يكون ميدانه هو التاريخ الحديث ، الأمر الذى يلقى ضوءا على تشعب ميوله وتعدد آفاق معلوماته فى هذا الميدان .

وقد جذب كتابه هذا (انجلترا فى عصر[٣] « ويكلف ») اهتمام الرأى العام لمدى نصف قرن من الزمان[٤] ، ثم نرى بعد ذلك أن ميله للتاريخ الحديث يتغلب عليه فيلفته الى التوفر على التأليف فيه ، حتى أن أحد الناشرين[٥] قد تولى نشر ١٦ ستة عشر كتابا بقلمه فى هذا الميدان .

ثانيا ـ (چون ستيوارت مل) (٢٠ مايو سنة ١٨٠٦ ـ ٨ مايو ١٨٧٣) :

تعطينا قصة (مل) صورة تخالف صورة (تريفليان) ، كما تبين بوضوح كيف أن القدرة العقلية العامة تسير جنبا الى جنب مع تطور الميل نحو التاريخ ، كما يظهر لنا تأثير المدرس المخلص فى تكييف اتجاهات تلميذه العلمية وما للتلميذ المجد من أثر فى مستوى تحصيله الدراسى . فما هى العوامل التى أثرت فى تطوير ميول (مل) وانتاجه ؟!

---

(١) تريفليان ـ المرجع السابق ص : ٢

(٢) المرجع السابق ـ ص : ٢٠

(٣) England in the Age of Wycliffe

(٤) تريفليان ـ المرجع السابق ص : ٢٠

(٥) الناشر هو لونجمان Longmans ـ أنظر المرجع السابق : ص ٢٤

١ — مستوى القدرة العقلية العامة :

قدر مستوى ذكاء (مل) بنحو ٢٠٠° حتى بلوغه سن السابعة عشرة ثم ينسبه ١٧٠° بعد وصوله هذه السن ، أما متوسط نسبة القدرة العقلية العامة المقدرة على أساس انتاجه فهى ١٩٠°[١].

٢ — الوراثة الاجتماعية :

كان جد (مل) لأبيه صانع أحذية ، ووالده هو (چيمس ستيوارت مل James Stuart Mill) الفيلسوف النفعى ، الذى وضع تاريخا للهند الى جانب كتاباته الفلسفية الأخرى[٢] ، وقد حرص الوالد على القيام بالعناية بتربية ابنه بنفسه .

والواقع أنه يمكن أن نعتبر أن من أهم العوامل التى أثرت فى تربية (مل) ارتباطه بأبيه ، ذلك الذى اشتهر بالجد والاجتهاد مع الحزم والصلابة .

٣ — تربيته :

(١) قراءاته :

حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل (مل) يتلقى تعليمه بالمنزل ، وقد بدأ يتعلم الاغريقية فى الثالثة من عمره ، ومنذ الثالثة حتى التاسعة ، استطاع أن يقرأ بتوجيه والده ، كتبا تاريخية لا تحصى ، هذا الى جانب قراءاته فى النواحى الثقافية الأخرى كالفلسفة . فمثلا قرأ أفلاطون وهو فى السابعة [٣] ، وكان منهجه التاريخى غنيا منذ البداية ، فعلى الرغم من أن هدف والده كان ينحصر فى تزويده منذ بلوغه الثالثة من العمر بالمراجع الكلاسيكية ، تلك التى تحكى قصة صراع الانسان من أجل التغلب على الصعوبات العديدة ، والظروف غير العادية ، فان كتبه الشائقة كانت تحكى سير الرجال العاملين من أبطال التاريخ ،

---

(١) Cox « كوكس » ، المرجع المذكور صفحات ٧٠٧ — ٧١١ ، صفحات ١٥٥ — ١٦٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٠٧

(٣) المرجع السابق ص : ٧٠٧

كما عززت قراءاته بقدر كبير من المادة التاريخية التى تفسر النظريات التى تتصل بالحضارة وبالحكومة وبالأخلاق[١] .

لقد أخذ الطفل يقرأ عن الحكومة الانجليزية وحركة الاصلاح الدينى وغيرها من الموضوعات ذات الطابع الجدى ، ومنذ الثامنة حتى الثانية عشرة ، استمر التاريخ ولا سيما القديم منه أحب مادة اليه[٢] ، ولهذا فانه الى جانب قراءته لتاريخ الرومان والاغريق ؛ فانه أكب على قراءة تاريخ العالم القديم ، كما درس نظام الحكم الرومانى وقوانينه ومشكلاته التشريعية ، وبين الثالثة عشرة والرابعة عشرة عكف على دراسة كاملة للتاريخ الاقتصادى — السياسى قراءة واعية ، فى حين أنه أمضى السادسة عشرة والسابعة عشرة فى قراءة الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأساليب الأدبية[٣] .

(ب) طرق دراسته :

١ — على الرغم من أن طريقة التعلم التى كانت سائدة فى زمنه كانت مجرد حشد الحافظة بالمعلومات ، فان طريقة (مل) قد شذت عن هذه ، اذ صار الفهم والهضم مع الحفظ[٤] جنبا الى جنب .

٢ — وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، درس علم المنطق ، الأمر الذى مكنه من اكتشاف أصول المعانى للكلمات ، ويمكن أن نستنتج من هذا أن نظرية انتقال أثر التدريب قد طبقت هنا بمعناها الحديث .

وقد كان يظن حينذاك ، أن مثل هذه الطريقة لو استخدمت استخداما صحيحا لاستطاعت أن تكون مفكرين جادين[٥] .

---

(١) (مل) الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ص ٧

(٢) (مل) المرجع السابق ص ١٠

(٣) (كوكس) Cox : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٤) كوكس : المرجع السابق ص ٧٠٨

(٥) (مل) الترجمة الذاتية . المرجع المذكور ص ١٦

٣ — عند ما بلغ الثالثة من عمره ، درج على أخـذ مذكرات يلخص فيها بأسلوبه وبكلماته العدد الوفير من الكتب التاريخية التى قرأها[١].

٤ — فى حين أن مناقشته الدائمة مع والده ، ومع أصدقاء والده — وكانوا من أكبر مفكرى القرن التاسع عشر — كانت تتم على قدم المساواة معهم على الرغم من فارق السن بينه وبينهم .

وفى أثناء نزهته اليومية الصباحية ، درج على أن يقدم لأبيه تقريرا وافيا عما درسه فى اليوم السابق . هذا التقرير كان يدبج بأسلوب (مل) الخاص .

٥ — كما كان يشجع الوالد طفله على أن يكتب تمرينات درج أن يسميها (كتابات تاريخية) [٢] . وقد شاء والده أن يترك طفله حرا يكتب هـذه كما يحلو له ، ذلك لأن الوالد لم يحاول يوما أن يتفحص ما كتبه ، مثل هـذه الكتابات — كما يقول هو نفسه — برهان ساطع على ميله القوى نحو التاريخ.

٦ — كما أعطيت له أشعار شكسبير ليدرسها ، وكان يلذ بقراءة المسرحيات التاريخية .

٧ — وكان يطلب اليه أن ينقـد كل ما قرأه ، ويشجع على تكوين رأى مستقل ، ومهما يكن من هدف وضعه الأب نصب عينيه لتحقيقه بالنسبة لابنه ، فانه لم يجد سبيلا على أن يرغمـه على القراءة أو التفكير . لقـد كان (مل) الصغير دائم التعطش الى المعرفة .

٨ — ولقد تعلم منذ البداية البحث عن الحقيقة وألا يقبل أقوال المؤرخين وآراءهم دون الاقتناع بصحتها ، وهكذا كانت القاعدة التى يرتكز عليها هى تجنب التحيز ، حتى على حساب الشعور الوطنى [٣] ، بمعنى آخر أنه عندما كان

---

(١) أنظر المرجع السابق ، مثبت به أسماء هذه الكتب — ص ٦

(٢) المرجع السابق : ص ١١

(٣) ترجمه مل الدائنة . المرجع المذكور — أنظر اتجاهه حيال حرب الاستقلال الأمريكية ص : ٧٠٦

(مل) صـــغيرا اتبعت معه طرق التعلم والبحث التى يصر مؤرخـــو اليوم على تعليمها للمتخصصين فى التاريخ .

٩ — اعتمد على المصادر الأولى والثانية فى قراءاته وكتاباته التاريخية .

الانتاج التاريخى :

(ا) عندما بلغ الخامسة استطاع (مل) أن يصمد لمناقشة دارت بينه وبين (ليدى سبنسر Lady Spencer) عن المقارنة بين مميزات (مالبره Malborough) و (ولنجتون Wellington) وكانت المناقشـــة طـــويلة وجديةوتقدر نسبة ذكاء (مل) لصموده فىهذا الموقف بـ ٢٠٠ درجة[١].

(ب) وعندما بلغ منتصف السابعة كتب تاريخ روما[٢] . وقد وصف بأنه انتاج يدعو للدهشة من طفل صغير جدا[٣].

(جـ) وقبل أن يصل السابعة من عمره أظهر ميلا وقدرة خارقة على تناول المـــادة التاريخيـــة بذكاء وفطنة نادرتين ، وذلك باعـــداد الملخصات والملاحظات النقدية . مثل هذا التحصيل قدر على ضوئه متوسط ذكاء مل بـ + ٢٠٠ درجة[٤] .

(د) وعندما بلغ الحادية عشر ، عهـــد اليه والده بتصحيح كتابه « تاريخ الهند » قبل طبعه[٥] ، مما يدل على وثوقه من مقدرته وكفاءته .

(هـ) وعندما ناهز الثانيـــة عشرة من عمره كتب « تاريخ حكومة روما » نزولا على رغبة شخصية . قدر هذا الانتاج بأنه يناسب مستوى طالب فى المرحلة الجامعية الأولى ، ومما يزيدنا اعجابا بهذا العمـــل هو أن

---

(١) (كوكس) Cox . المرجع المذكور ص : ١٥٦

(٢) (مل) ـ الترجمة الذاتية ـ المرجع المذكور ص : ١١

(٣) كوكس : المرجع المذكور ص : ٧٠٩

(٤) المرجع السابق ص : ١٥٦

(٥) كوكس : المرجع السابق ص ٧٠٩

(مل) استمد مادته من مصادر لاتينية ، والكتاب يتضمن مناقشة النقاط الدستورية ، ويتضمن تحقيقا للقوانين الزراعيـة ودفاعا عن الحزب الديموقراطى الرومانى[١] .

(و) وبين التاسعة والثالثة عشر حاول (مل) كتابة ملحمة استمد الهامها من ملحمة (هومر) بقلم (الكسندر بوب Alexander Pope) . ولقد نجح (مل) فى اتمام كتاب كان اكمالا للالياذة ، الأمر الذى يدل بوضوح على انتاجه الغزير فى هذا الميدان .

القرائن الدالة على قدرات فذة وميل متصل لمادة التاريخ

قد يساعد كثيرا على تقدير مظاهر القدرات والميول المختلفة لدى (مل) ، اذا ما حللنا أول فقرة فى كتابه : تاريخ روما ذلك الذى كتبه ، كما نوهنا سابقا وهو فى منتصف السابعة من عمره ، وتجرى الفقرة على النحو الآتى[٢] :

أولا — حكومة ألبان Alban — يقول دايوسيس الهاليكارناسى Dionysius of Halicarnassus .

الغزو الرومانى لايطاليا :

نحن لا نعرف شيئا عن تاريخ روما حتى الغزو الصقلى ، فقبل هذا الوقت لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم موجاما ، وبعد أن رد الصقليون على أعقابهم ، قام ملوك (أيبريا Iberia) بحكم روما لسنوات عديدة ، وحدث أن جاء (آينياس Aeneas) بن (فينوس Venus) و(أنيكسيس Anchises) الى ايطاليا فى عهد (لاتينوس Latinus) وأسس مملكة هناك تدعى ألبانيا Albania ثم تولى الحكم بعد (لاتينوس) ، واشترك فى الحروب الايطالية . غير أن شعب (الروتولى Rutuli) ذلك الشعب الذى كان يعيش قرب البحر وتمتد أملاكه على الخط من (نوميسيوس Numicius) حتى (لافينيوم Lavinium) وقف ضـده

---

(١) كوكس : المرجع السابق ص ١٥٧

(٢) كوكس : المرجع السابق ص ٧٩٥

غير أن ملكهم (تورنوس Turnus) قد هزم وقتل بيد (آينياس) ، ذلك الذى قتل بعده بوقت قصير واستمرت الحرب ولاسيما ضد شعب (الروتولى) حتى عهد (روميلوس Romulus) ، أول ملك من ملوك روما ، ذلك الذى قام بتشييد روما .

ويمكن ابداء الملاحظات الآتية على هذه الفقرة :

١ — ادراك (مل للأهمية التى تلعبها الوثائق التاريخية فى كتابة التاريخ ، ولقد حرص على ذكر المصدر الذى استقى منه معلوماته التاريخية وهو (دايونيس الهاليكارناسى) ، كذلك يتضح أن (مل) فى كتابه الأول لم يستق معلوماته من الكتب المدرسية بل اعتمد أساسا على المصادر الأصلية .

٢ — وأن الكلمات مثل : أولا ، وقبل ، وبعد ، وسنوات عديدة وغيرها تشير الى ادراك (مل) لأهمية عامل الزمن فى فهم وعرض التاريخ ، فهذا المظهر يعطى للتاريخ احدى صفاته المميزة ألا وهى التعاقب الزمنى .

٣ — ثم أن طريقة تنظيمه للحوادث بشكل يجعل الحادثة الأولى تلى الحادثة الثانية تشير الى اهتمام (مل) لا بالحرص على التتابع التاريخى للأحداث فحسب بل على ادراكه أهمية العلاقات السببية فى بناء القصة التاريخية أيضا ، أى أن كل حادثة تالية تترتب على حادثة سابقة . ويعتبر هذا التنظيم أحد خصائص الكتابة التاريخية .

٤ — كذلك يلاحظ اهتمام (مل) بالدور الذى يلعبه المكان فى عرض المادة التاريخية وابرازه كمسرح يلعب عليه الشخصيات التاريخية دورهم ، وبالتالى ادراك أهمية العلاقة بين الزمان والمكان ، ، وبين البيئة الجغرافية والأحداث التاريخية . فشعوب الشواطىء مثلا قد عرفت عادة بوقوفها ضد الغزاة تدافع عن حرمتها .

٥ — والفقرة السابقة تشير بوضوح الى ادراك (مل) للدور الذى تلعبه الوحدة الاجتماعية (Social Unit) فى تكوين القصة التاريخية . فمثلا هناك

شعب (الروتولى) ذلك الشعب الذى يقطن قرب شاطىء البحر يعتبر وحدة اجتماعية أبرزه (مل) ابرازا قويا ، كما حرص على وصف العلاقات الاجتماعية المختلفة التى تربط هذا الشعب بملوك روما المختلفين .

٦ — وفى نفس الوقت أدرك (مل) أهمية الدور الذى يلعبه الرجل العظيم أو البطل الفذ فى الأحداث التاريخية وان أسماء الأعلام (تورنوس وآينياس ورومبلوس) مثلا تبرهن على تقديره لهذا العامل الهام فى الأحداث التاريخية .

٧ — كذلك نرى بوضوح اهتمام (مل) بذكر الأحداث البارزة فى كتابة القصة التاريخية ، فهناك مثلا : غزو الصقليين لايطاليا ، وهناك تأسيس (روميلوس) لروما ، وهناك الحروب المختلفة ، كل هذا وغيره يؤكد فهم (مل) للدور الذى تلعبه الحوادث الحاسمة فى تاريخ شعب من الشعوب ، وكثير من المؤرخين يؤكد ما لهذه الحوادث من أثر كبير فى تغيير دفة التاريخ .

٨ — حرص (مل) على أن يبرز ويركز فى فقرة واحدة أفكارا عديدة ، مما يدل على ادراكه لضرورة اختيار الحقائق الأكثر أهمية ، واغفال الحقائق الأقل أهمية . كما حاول الانعتاق من الأسلوب الأدبى عند عرضه للمادة التاريخية ، الأمر الذى يدل على تأثره بالنزعة الموضوعية العلمية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر .

٩ — هناك من الدلائل ما يشير الى فهم (مل) لأهمية بداية ونهاية عهد من العهود ، الأمر الذى يشير بوضوح الى فهمه لأهمية فكرة الاستمرار والتطور الى جانب ادراكه لفكرة السبب والنتيجة .

١٠ — لقد قدرت المصادر [1] نسبة مستوى القدرة العقلية العامة (لمل) بـ ٢٠٠ درجة ، وذلك على أساس ادراكه لمعانى الاصطلاحات التاريخية مثل : حكومة ، غزو ، هزيمة ، طرد ، حكم ، الوقوف ضد ، اجتياح ، وكلها قد

---

[1] كوكس : Cox — المرجع المذكور ص ٢٠٠

استخدمها استخداما واعيا . كذلك تتضح لنـا دقته فى عرض مادته التاريخية مثلا :

The country bad not been entered by any foreign invader.

(لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم موجاما)

established a kingdom. (أسس ملكا)

engaged in wars. (استغرق الحروب)

succeeded in the government, (طوى الحكومة وجعلها فى ركابه)

ولقد قدر العمر العقلى (لمل) على أساس استخدام هـذه الاصطلاحات والعبارات التاريخية بمستوى ذكاء مراهق فاق الخامسة عشرة من عمره [١] ، بينما قدرته بعض المصادر الأخرى بمستوى ذكاء صبى فاق الثانية عشرة من عمره[٢].

هـذا التقريران المضطربان بين الثانية عشرة والسادسـة عشرة يجعلاننا لا نستبعد أن يصل تلاميذ المرحلة الاعدادية والمرحلة الثانوية الى نفس المستوى أو ما يقرب منه ، اذا ما أحيطوا بمثل الظروف التى أحيط بها (مل) منذ طفولته الباكرة ، معنى هذا أنه لابد من أن نضع فى حسابنا دائما أثر العوامل المختلفة التى تعوق تلميذ هاتين المرحلتين عن الوصـول الى المستوى الذى وصل اليه (مل) وهو لم يعد طور الطفولة المبكرة .

ثالثا ـ المؤرخ ادوار جيبون (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) Edward Gibbon :

يرجع اختيارى للمؤرخ جيبـون الى أنه يبين صـورة مختلفة عن هاتين الصـورتين اللتين عرضتا لكل من (تريثليان ومل) . فعلى عكسهما لم يظهر جيبون ميلا نحو التاريخ أو حماسا لحفظه الا عندما بلغ العاشرة من عمره ، ربما كان يرجع هذا الى ظروفه المنزلية ، والى اعتلال صحته ، كما لم يحظ باهتمام والده بتربيته كما حظى زميلاه .

---

(١) Cattell, Roymond B. Your Mind and Mine, London, George G. Harrap & Co. Ltd. 1934 - p. 40.

(٢) كوكس : المرجع المذكور ص ١٥٦

تقصى تطور ميل جيبون نحو التاريخ

١ — عندما بالغ التاسعة ، أدخل مدرسة خاصة Public school [١] تلقى فيها أول ماتلقى دراسة أشعار (هومر ترجمة بوب) [٢] ، ومنها كانت انفعالاته الأولى فى ناحيتى الأدب والتاريخ معا . ولعل انطباعات الأحداث التاريخية التى تضمنتها أشعار هومر مثل حروب طروادة وما دار بين أبطالها من مشاحنات ومعارك تركت فى ذهن الغلام أثرا موشى بأمشاج من الحقيقة والخيال الأمر الذى حشد نفسه بشتى الانفعالات التى يمتزج فيها الخوف بالحب بالشفقة [٣] .

٢ — وفى الثانية عشرة ، كان قد تمكن من استيعاب قدر كبير من الشعر الانجليزى والقصص ذات الطابع التاريخى والمغامرات والرحلات [٤] ، وان لم تتح له ظروفه أن يسمو الى قراءة المصادر الأصلية على النحو الذى تمكن منه (مل) وذلك لجهله باللغة الاغريقية ، وعلى الرغم من هذا كله نرى جيبون يعتبر السنة التى أمضاها فى المدرسة كانت ذات أثر أحسه بكل قواه فى تقدمه الفكرى لقد ظل يلتهم كل ما تقع يده عليه من تاريخ قديم أو حديث غربى أم شرقى ، ويجد فى قراءته لذة [٥] . وفى الثالثة عشرة استغرقه الميل للتاريخ والانكباب على أحداثه استغراقا كاملا [٦] .

٣ — وفى الفترة التى تقع بين سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، وكان فيها فريسة مرض كان يحس بمرارة حرمانه من البيئة الثقافية التى تألفها روحه . واستطاع بتأملاته أن ينفذ الى العهود السحيقة ويستنطق أحداثها ، حتى تمكن

---

(١) (المدارس العامة) Public Schools : هى مدارس خاصة ، يلتحق بها التلميذ الانجليزى ، نظير دفع رسوم باهظة ، لا تحتملها ميزانية الرجل العادى .

(٢) Alexander Pope

(٣) جيبون (Gibbon) : المرجع المذكور — الترجمة الذاتية ص ٢٧

(٤) المرجع السابق : صفحات ٢٧ — ٢٩

(٥) المرجع السابق : صفحات ٣٤ — ٣٥

(٦) كوكس (Cox) : المرجع المذكور ص ٥٢٨

من أن يجلو مرائيها بصورة تكاد تحس . وقد لعبت الصدفة فى اتجاهه هذا دورا يمكن تلخيصه فى عثوره على كتاب يتناول العصر البيزنطى ، وحياة النبى العربى وتاريخ الجزيرة العربية ، فى مكتبة أحد أصدقاء والده ، وقد استطاع قبل أن يتجاوز السادسة عشرة أن يلم الماما كاملا بما كتب عن تاريخ العرب والفرس والمغول والترك .

ونرى أن انطباع نفسه بتاريخ الشرق جعله يترك بصمات منه على انتاجه فى المستقبل .

٤ — ومما يؤسف عليه أن الظروف لم تيسر له ما يتمكن به من تنظيم معلوماته ، فهو مثلا عندما التحق بجامعة اكسفورد ، لم يجد البيئة الملائمة التى تساعده على تحقيق هذا الغرض . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فانه لو كان قد صادف المدرس الذى يتلقاه بفهم لقدراته الذهنية ولمدى استعداده الصالح للمعرفة ، مثل ما حدث مع تريفليان لكان قد اتجه اتجاها أكثر توفيقا ، وكان لأثر فقر البيئة الجامعية من الوثائق التى تعينه على استكمال دراسته وتنظيمها ، انصرافه عن دراسة اللغة العربية التى كان يصبو الى الالمام بها ومن عدم تمكنه من التقدم فى دراسة تاريخ الشرق .

وعلى الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت به من كل جانب والتى جعلته يرتمى فى أحضان الكسل لمدة ثلاثة أعوام لم يفقد حرارة اهتمامه بالتاريخ ومضيه فى دراسته على طريقته الخاصة تلك التى لا تعترف بنظام ولا تتخذ أسلوبا معينا والتى تتجه الى دراسة التاريخ الأجنبى الذى لا يتصل بوطنه[1] .

مظاهر ميول وقدرات جيبون التاريخية

١ — فى الخامسة عشرة من عمره ، وعلى الرغم من افتقاره للأسس التربوية الصحيحة وعدم تعوده على التفكير المنطقى المنظم ، وافتقاره الى الأسلوب

---

(١) جيبون ـ الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٤٧

الصحيح الذى يخلو من الأخطاء الهجائية والنحوية وضع كتاب (عصر سيزوستريس The Age of Sesostris ، ويرمى الى تقصى حكم هذا الملك فى آسيا ، بيد أنه لم يتم هذا الكتاب [١] .

٢ — وفى الحادية والعشرين ، كان جيبون قد أتم كتابه الأول ، وهو عبارة عن مقال وضعه باللغة الفرنسية عنوانه (دراسات فى الأدب) .

وعلى الرغم من أن أسلوبها كان يوصف بأنه أسلوب عادى ، الا أنها نادت بضرورة اعطاء التاريخ والسياسة مكانهما بين العلوم الأولى . وكانت دعوته أقوى من أية دعوى تماثلها فى عصره [٢] .

٣ — وعندما كان يتم تعليمه بسويسرا ، وعلى الرغم من انهماكه فى دراسة بعيدة الصلة عن التاريخ الا أننا نلاحظ استمرار ميله لقرائته ولاسيما ما يتصل منها بالعصور الحديثة .

٤ — ولقد كان جيبون أول مؤرخ فى بريطانيا ، يحرر نفسه من الطريقة التى أدخلها مونتسكيو ، تلك التى كانت تعتمد فى تفسيرها للحوادث التاريخية على العوامل البشرية ، وكان جيبون يحس تماما بأهمية العوامل الثقافية لزمان ومكان معينين الى جانب تأثير المناخ فى تطوير الأحداث التاريخية .

٥ — ولقد اتيحت له دراسة المنطق وأساليب التفكير المنظم ، الأمر الذى وضح أثره فى اتسامه بروح النقد الذى كان يفتقر اليها قبل هذه الدراسة ، فتحول من مجرد قارىء عادى الى قارىء يتذوق وينقد ويستوعب على أسس منطقية سليمة سديدة .

٦ — وكان من أثر هذه الدراسة وثمرتها أن توجه الى البحث عن المصادر الأصلية ، كما علمته كيف يستعين بالخرائط وبالقوائم الزمنية ، وجعلها اطارا

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) Young, G. M. Gibbon, Rupert Hart - Davis, London 1932 Edition 1948 p. 80 (ص ٨٠)

ربط الزمان بالمكان . وكان يعتقد أن هذه الطريقة لا يمكن بحال أن يستغنى عنها فى دراسة التاريخ . وقد تفرد جيبون بذاكرة ذات قدرة خاصة على استيعاب التواريخ الزمنية (الأيام) والتوزيع الجغرافى والتاريخى للأحداث[١].

٧ — أدرك جيبون أهمية المصادر التاريخية من أجل البحث عن الحقيقة — كما استطاع أن يقدر تماما قيمة الأدلة التى تستقى من مصادر معاصرة موثوق فى عدم تحيزها — ولقد تبين أن الكثير من هذه البراهين ، يأتى من المصادر المعاصرة التى لم يكن دافعها للكتابة تحقيق غرض ما[٢].

ومن أجل أن نبرهن على صدق هذا القول ، نسوق حادثة اعتناق جيبون للمذهب الكاثوليكى ، وهو مازال طالبا فى سن السادسة عشرة بجامعة أكسفورد وذلك بعد أن اقتنع بما كتبه الدكتور (ميدلتون Middleton) ، الأمر الذى يشير بوضوح الى معنى تقديره للحقائق التاريخية والأسانيد المقنعة ، وان صدرت من يخالف عقيدته ، على أنه اذا كانت هذه الحادثة تكشف عن تحمسه وتمسكه برأيه ومجاهرته به ، على الرغم من كل ما يكتنفه من صعوبات ، الا أنها كانت تشير أيضا الى أنه لم يكن بعد ناضجا النضوج الفكرى المطلوب ، ذلك الذى يحتم عليه أن يرى المسألة من أوجهها جميعا ، والا بد من أن يستمع الرأى المعارض قبل أن يجنح لرأى ما[٣] بدليل ارتداده الى مذهبه الأصلى .

٨ — وهو يشبه (تريفليان) فى مدى تأثره بالزيارات التاريخية . ان العمل الذى خلد اسمه كان وليد الهام زيارته (للكابيتول Capitol) بروما سنة ١٧٦٤[٤] هذا الحادث يذكرنا بملاحظة أبداها (ستانلى هول Stanly Hall[٥]) .

---

(١) يونج (Young) المرجع المذكور ص ١٦ ، أيضاً جيبون ، الترجمة الذاتية ، المرجع المذكور ص ٣٦

(٢) يونج (Young) ، المرجع المذكور ، ص ١٦

(٣) جيبون ـ الترجمة الذاتية ـ المرجع المذكور صفحات : ٥٠ ـ ٥٣

(٤) يونج ، المرجع المذكور ص : ٦٥

(٥) Hall, G. Stanley : Educational Problems, Pedagogy of History, New York and London, D. Appleton & Co. 1911 - Vol. II pp. 279 - 280.

عن تلميذ المرحلة الأولى الذى يصادف وجوده فى مكان أثرى كروما أو أثينا ، هناك حيث تحيط به الآثار القديمة من كل جانب ، فلابد من أن تنجذب ميوله نحو الماضى ، ونحو دراسة التاريخ .

هذا على الرغم من محاولة مدرسية الذين يعتنقون المبدأ القائل بأن أفضل طريقة لتدريس التاريخ هى العودة بالصغار للتاريخ المعاصر ، لكيلا يتوهموا أن ما مضى لا يمكن أن يعود ولن نستطيع أن نحظى بخير منه ، الأمر الذى يكون له رد فعل ينطوى على شعور بالخيبة ويوحى باليأس .

الخلاصة : ان دراسة جيبون بينت كيف أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يستمر ، على الرغم من الظروف غير المواتية لنمو مثل هذا الميل ، بل من الممكن خلقه وتعهده بالرعاية المستمرة ، ذلك أنه على الرغم من أن جيبون لم يرزق الوالد المتحمس لدفعه ولتربيته كماكان الحال مع (مل) أو يصادف المدرس الملهم كما كان الحال مع (تريفليان) فلقد استمر ميله فى الاتجاه الصحيح . على أن تأخر ظهور انتاجه يدل دلالة واضحة على ما للظروف من تأثير لا يمكن اغفاله ، الأمر الذى كان ينحسر عن مضاعفات أفدح فى شخصية غير شخصية جيبون الذى امتاز بقدرة علم التعلم[1] ، وبمقدرة عقلية ممتازة ويأخذ نفسه بعادات طيبة لاستيعاب ما قرأه .

ملاحظات ختامية

يجب أن تتذكر ما سبق أن لفتنا اليه الأنظار من أن النتائج التى يمكن استخلاصها من التحليل السابق للحالات الثلاث هى نتائج لم تصل بعد الى حد الثقة المطلقة . أى لابد من أن تنظر الى هذه النتائج بشىء غير قليل من التحفظ، لاسيما اذا ما تذكرنا ما تعانيه طريقة السير والتراجم من ضعف أشرنا اليه فى صدر هذا البحث ، كذلك لابد من أن نأخذ فى اعتبارنا الظروف التى أحيط بها من طبقنا عليهم طريقة (دراسة الحالات) لتحليل ميولهم نحو التاريخ .

---

(١) قدرت (كوكس) . المرجع المذكور ، ص ٧٨١ — نسبة القدرة العقلية العامة لجيبون ب ١٤٥° عند ماكان صغيراً حتى بلغ السابعة عشرة . ثم ب ١٥٥° بعد هذه السن .

هذه النتائج هى :

اذا ما رجعنا الى المشكلة الرئيسية التى أثرناها فى صدر هذا البحث وهى : هل تتفق مع[١] راوزى على تقسيمه لعملية نمو الميل نحو التاريخ الى مرحلتين ؟؟ مرحلة السرد ومرحلة الحقائق أو المرحلة العلمية . هذا التقسيم فيه قدر كبير من التعسف ، ذلك لأن عملية نمو الميول ، شأنها كشأن أية عملية أخرى تتصل بتطور أو بنمو شيء مالا يمكن أن تعسد فى تحديدها بأن نجعل بين مراحلها فواصل متكلفة .

فعملية النمو فيها استمرار . هذا الاعتراض لا يمنع على الاطلاق اعترافنا بأن ميول بعض الأفراد نحو التاريخ يمكن أن تبدأ من ميلهم لسماع القصص السردية أو من قراءتهم لكتب شائقة مثل كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) .

والمؤرخ تريفليان يمثل هذا الفريق خير تمثيل ، وأن هناك من ينشأ ميله نحو التاريخ من قراءة الحقائق التاريخية قراءة واعية ترمى الى فهم مدلول هذه الحقائق ، وخير من يمثل هذا الفريق (مل) ، على أن الأخير لم يتفرد بهذا الاتجاه (فجون هافت) John Havet[٢] ، ذلك المؤرخ الفرنسى ، الذى أضاف الى شهرته كمؤرخ صفة المؤرخ الناقد ، كان يرى فى مراحل دراسته قبل الجامعية أن التاريخ مادة مملة فى المدرسة ، ذلك لأنها كانت المادة الوحيدة التى لم تتحد قدراته العقلية ، فلم يطلب اليه أن يعمل فكره فيها أو يقوم بتقصى صحة ما تقوم عليه . الأمر الذى يشير الى أن عزوف (هافت) عن الاقبال على دراسة التاريخ لا يرجع الى طبيعته ، بل على الطريقة السردية التى كان يدرس بها حينذاك ، وهى نفس الطريقة التى اجتذبت (تريفليان) والتى أثنى عليها (راوزى) ثناء طيبا[٣] .

من هذا يتضح بجلاء أن عقلية (مل وهافت) الناقدة كانت فى طبيعتها

---

(١) أنظر ص ١١٧ من هذه الحولية .

(٢) Langlois ch. v and Seignobus ch. Introduction to the Study of History Translated by G. G. Berry, London, Duckworah & Co. New York - Henry Holt & Co., 1898. p. 12

(٣) A. L. Rowse : The Use of History, Hodder & Stoughton 1947 ص ٤٨

تختلف عن عقلية (تريفليان) ، فالأخير كان طفلا وصبيا ، يستغرق فى خياله ، يميل الى الشعر والى تذوق الأدب [١] ، فى حين أن (مل وهاڤت) اتجه ذهنهما اتجاها تحليليا ، والى فحص وتقصى الأدلة والبراهين . غير أنه اذا كان (مل) قد صادف من يمسك بكلتى يديه ويقوده نحو الطريق الصحيح ، فان (هاڤت) لم يكن محظوظا مثل (مل) اذ لم تتح له فرصة واحدة لتوجيه ميوله الوجهة الصحيحة حتى اذا ما التحق بالكلية واذا بهـذه الميول تتفتح وتجد الفرصـة لشحذها، وتبلورها حتى تصبح ميلا دائما نحو التاريخ النقدى Critical Histoy .

نستنتج من هذا أيضا ملاحظة أخرى هامة ، هى أن الفروق الفردية تملى علينا ضرورة تنويع طرق التعليم ، (فمل) مثلا لم يكن ليستوعب حقائق التاريخ الا بتفهم معانيها وبتقصى عللها وتتائجها الى درجة عبر بها عن اتجاهه فقال : « وقد رضت نفسى على التفكير فى أى أمر منذ الوهلة الأولى [٢] » . فى الوقت الذى أرغم (تريفليان) على أن يعى التواريخ (الأيام) والحقائق عن ظهر قلب منذ أن كان فى السادسة من عمره . ومن أجل توضيح الفرق بين الطريقتين يجمل بنا أن تتأمل الفقرتين الآتيتين المقتبسـتين من التراجم الذاتيـة لكل من (مل وتريفليان) يقول الأخير :

انى قد أجبرت على حفظ التواريخ والأشعار عن ظهر قلب ، كما يجب على جميع الأطفال أن يحذو حذوى ، هذا فى الوقت الذى لم تزل فيه ذاكرتهم غضة وقابلة للاستيعاب ، بدلا من أن نعمد الى حشدها بالعموميات عن التاريخ وعن النقد الأدبى ، تلك التى لا يمكن أن تعنى شيئا بالنسـبة لعقليتهم القاصرة غير الناضجة [٣] .

فى حين أن (مل) يؤكد أنه : (لم يكن يسمح أبى بأن ألقن أو استوعب شيئا بطريقة آلية [٤] .

---

(١) و(٢) (Cox) : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٣) تريفليان ، المرجع المذكور ، الترجمة الذاتية ص ٧

(٤) كوكس ، المرجع المذكور ، ص ١٥٨

فاذا كان التذكر يعد عمليـة هامة فى تعـلم التاريخ ، فهناك طرق مختلفة للتحفيظ : طريقة حشد الذاكرة بالحقائق والمعلومات دون فهمها ، وطريقة حفظها بعـد فهمها ، كما أن هـناك الذاكرة اللاشـعورية Unconsious Memory تلك التى تعى الحقائق دون بذل مجهود فى معاناة حفظها ، أى بطريقة تلقائية كما كان الحال مع جيبون ، الذى لم يبذل مجهودا لتذكر الحقائق التاريخيـة غير أن قراءاته العديدة المتفرقة ، واستعداده لتذكر ما يقرأ من حقائق ، جعله يتصور التعاقب التاريخى للأحداث ، ويرسم فى ذهنه الخرائط التاريخية .

كذلك يبين التحليل للبحث السابق بوضوح تشعب ميول هؤلاء المؤرخين المختـارين . فكل منهم يميل الى فرع بل الى عصر مختلف من فـروع وعصور التاريخ .

(فريفليان) مثلا يظهر اهتماما شـديدا بالتاريخ الحربى وبتاريخ معارك العصر الحديث ، بينما يميل (مل) الى التاريخ القـديم بكل ما فيه من جفاف وغموض فهو يقول :

انه على الرغم مما يوصف به أسلوب هذا الكتاب من جفاف فقد وجدت سرورا طاغيا حينما تصفحت أحـداث تاريخ العالم القديم ، وكلما أمعنت فى قراءته ذخرت رأسى بحقائق مفصلة تتصل بشعوب قلما يعرف الناس عنها شيئا ، لأنها موغلة فى القدم . هذا فى الوقت الذى لم يجذبنى اليه التاريخ الحديث اللهم الا اذا استثنينا صفحات مبعثرة هنا وهناك ، مثل حروب الاستقلال الهولندية ، فلم أعرها الا انتباها طفيفا ولم يهمنى أن أعرف عنها الشىء الكثير[1] .

فى حين أن جيبون كان يميل الى التاريخ الشرقى بكل ما فيه من سحر وثروة وغرابة وجمال .

النتيجة الهامة التى نخرج بها من هذا البحث أنه من العبث أن نعمد الى فرض تقسيم للعهود وللفروع التاريخية المختلفة لملائمة كل منها لمجموعة كبيرة

---

(١) مل : الترجمة الذاتية ، المرجع المذكور ص ١١

من التلاميذ ، فى مرحلة من مراحل التعليم المختلفة . يترتب على هذا أن انتاج التلاميذ يتخذ أشكالا عديدة ، فتريفليان ، وأمثاله يغرمون بالأسلوب الأدبى فى كتابة القصة التاريخية ، وهو يتجه اتجاها خاصا نحو التاريخ الحديث ، فى حين أن (جيبون) اتجه نحو ميدان آخر ووجد فيه (اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية) ما يغذى فكره ويشحذ همته لاخراج الفكرة الى حيز الوجود فى كتاب لم تزل له شهرة باقية [١] ، فى حين أن (مل) أصبح الكاتب الناقد السياسى الاجتماعى الاقتصادى فى القرن التاسع عشر .

كل هذا يشير الى ضرورة مراعاة مبدأ الفروق الفردية ، ليس فى توجيه قدرات التلاميذ فحسب ، بل فى ميولهم واتجاهاتهم ، وفى طرق تعلمهم .

كذلك يبين التحليل السابق بوضوح كيف أن الدور الذى تلعبه القدرات العقلية المختلفة باختلاف الأفراد المختلفين . فالتخيل مثلا قد لعب دورا أكبر فى تصور (تريفليان) للأحداث التاريخية ، فى الوقت الذى لم يحتل مكانا هاما فى عملية تعلم (مل) لهذه المادة بالذات ، اللهم الا عندما حاول نظم الشعر ، مقلدا للملاحم الاغريقية الخالدة . معنى هذا وجوب اهتمام المدرس باستخدام جميع القدرات العقلية المختلفة فى جميع المراحل التعليمية ، الأمر الذى يهدم النظرية التلخيصية من أساسها ، كذلك لابد من استخدام جميع الوسائل المعينة المشوقة والطرق التربوية المختلفة لنصل الى النتائج المرغوب فيها مع الأفراد المختلفين فى المستويات من حيث القدرات والاستعدادات والميول والاتجاهات .

كذلك اتضح من البحث أن من العبث أن نقسم التلاميذ الى مجموعات كبيرة متجانسة طبقا لميولهم وقدراتهم ، ففى الوقت الذى عجز فيه (تريفليان) عن متابعة الرياضيات أو الشعور بميل لها ، فان هذا العزوف لم يشترك فيه (مل أو جيبون) ؛ فقد أثر عنهما البراعة فى هذه المادة بالذات [٢] ، الأمر الذى يشير

---

(١) هرنشو ـ ترجمة عبد الحميد العبادى ، المرجع المذكور ص ٦٤

(٢) هذه النتيجة تتفق مع نتائج أبحاث أخرى كثيرة ـ أنظر مثلا : Terman, Lewis et Ia « الطفل الموهوب » المرجع المذكور سنة ١٩٤٦ المجلد الرابع ص ٢٠٦

بوضوح الى وجوب ادخال التاريخ فى جميع المناهج التعليمية لأنه لا يتعارض مع أى اتجاه آخر نحو مادة أخرى . فالمبرز فى مادة الرياضة مثلا يستطيع أن يتفوق أيضا فى التاريخ ، وان تعميم تدريس مادة المجتمع العربى واتجاه المشرفين على بناء المناهج الدراسية — بل اصرارهم على وجوب تدريس تاريخ تطور المواد الدراسية جنبا الى جنب مع محتوياتها — فمثلا تدريس تاريخ العمارة بكلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ليتفق تماما مع هذه النتيجة .

الى جانب هذه النتائج التى استقيناها من الفروق والاختلافات بين المؤرخين هناك ملاحظات عامة يمكن أن تستنتج من دراسة حالاتهم جميعا ، ولها فائدتها من الناحية التطبيقية فى ميدان تعلم التاريخ وهى :

١ — يصعب خلق ميل نحو التاريخ فى الأفراد مالم توجد البيئة الملائمة .

٢ — فاذا وجدت هذه البيئة ، فان ظهور الميل نحو التاريخ يأتى مبكرا ، فاذا لم تظهر ميول مزاحمة فمن المحتمل استمرار الميل نحوه حتى نهاية العمر ، وفى هذا المعنى فقط يمكن أن تتفق مع (راوزى)[١] ، على أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يبدأ منذ المرحلة الأولى ، ويستمر حتى نهاية المراحل التعليمية الاجبارية [٢] .

٣ — يلعب المستوى الاقتصادى والاجتماعى دورا هاما فى ظهور وتطوير الميول نحو التاريخ ، فاليسر الاقتصادى ضرورى لتزويد الفرد بالبيئة المساعدة على اظهار هذه الميول ، كتزويد الفرد بمكتبة ملائمة ، ومنحه فرصة للاستعانة بمؤدب خاص ، واتاحة الفرصة لزيارة الأماكن التاريخية .

٤ — للتراث الاجتماعى دوره فى خلق الدوافع القوية المشجعة على نمو الميل نحو التاريخ والتخصص فيه .

---

(١) راوزى (Rowse) المرجع المذكور ص ١٦٦

(٢) المقصود بالمرحلة الإجبارية ، تلك التى لا بد لكل فرد من أن يمضيها بالتعليم الإلزامى . وتختلف مدتها باختلاف الدولة المشرفة على تنظيم التربية والتعليم ، فى انجلترا مثلا تنتهى عند سن الخامسة عشرة ، وتمتد إلى الثامنة عشرة ، كمرحلة جزئية .

٥ — يستطيع المدرس أن يقوم بدور هام فى بعث الميل نحو التاريخ ، كما يساعد على تنشيطه وتعهد التلاميذ بأحسن الطرق التعليمية .

٦ — قد يفوق أثر الأسرة تأثير المدرس والمدرسة فى توجيه ميول أفراد الأسرة .

٧ — الصحة عامل هام فى متابعة الدراسات وفى الانتاج المبكر .

٨ — القراءة المنتظمة المستمرة الواعية عامل هام يساعد عملية تعلم التاريخ .

٩ — دراسة الأشعار التاريخية ، وتعلم اللغات الأجنبية تعين على دراسة التاريخ دراسة مفيدة .

١٠ — الكتابة الحرة تمرين مفيد ، كما هى دليل على الميل والاهتمام بدراسة التاريخ .

١١ — عملية الاستذكار الواعى أفضل طريقة لكتابة القصة التاريخية كتابة سليمة .

١٢ — مناقشة الحقائق واستعادتها بأسلوب الفرد الذاتى ، طريقة مفيدة تؤدى الى فهم الحقائق وتساعد على الوصول الى رأى مستقل .

١٣ — معرفة مدلولات الاصطلاحات التاريخية عامل هام يساعد الفرد على التعبير عن أفكاره .

١٤ — يؤدى الولع بالتاريخ ، وحب الاستطلاع الموجه الى الرغبة فى اكتناه الحقائق والى المثابرة على تعلم هذه المادة .

١٥ — تلعب القدرة العقلية العامة دورا هاما فى تفهم المعانى التاريخية .

١٦ — للعادات الجيدة فى الاستذكار أثرها فى ابلاغ الفرد تحقيق أهدافه .

١٧ — بينما يستطيع الفرد أن يبدأ بتناول المادة التاريخية تناولا واعيا فى مرحلة مبكرة كما هو الحال مع (مل) يمكن أن تتأخر حتى الربيع العشرين كما هو الحال مع (جيبون) .

بما أن هؤلاء المؤرخين الكبار ، قد نشأوا فى ظل التربيـــة التقليـــدية التى سيطرت عليها نظريات الملكات والتـــدريب الشكلى ، وانتقال أثر التدريب ، فالطرق التى تعلموا بها التاريخ لا تتفق مع مبادىء نظريات التعلم الحديثة ، فمثلا لم تكن طرق المعامل أو المشكلات أو الوحدات قد ظهرت بعد . على الرغم من ذلك كله ، يجب أن نتذكر أن الهدف الذى ترمى اليه هذه الطرق الحديثة هو وقوف التلميذ موقفا ايجابيا فى عملية التعلم وقد تبين من التحليل المذكور كيف أمكن بلوغ هـــذا الهدف بعينه بالنسبة للمؤرخين المختـــارين فى ظل التربية التقليدية . فتريڤليان ومل وجيبون كانوا جميعا قراء نهمين متشوفين للمعرفة ، لهم ميل للتعلم ولهم رغبة فى تحقيق هدفهم ، وجميعهم قد سجلوا نجاحا ملحوظا فى ميدان تعلمهم ، وكانوا منهومين بصفة خاصة بالتاريخ .